بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

سورة الحشر مدنية، ويقال لها: سورة بني النضير.

والسورة تبيِّن طرفًا من: غدر اليهود، ونكثهم العهود، ووجوب اليقظة لهم، والحذر منهم، وكيفية التعامل معهم.

وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

بداية: تؤكد عزة الله وحكمته، وأن كل ما في الكون يسبح بحمده سبحانه.

وهي في الوقت ذاته: تشير إلىٰ عظمة الله من خلال أفعاله مع الكافرين، والمنافقين، والمؤمنين، كما توضحه الآيات التالية، حيث إنه سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾

نعم، ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم يهود بنو النضير، الذين كانوا يقيمون بالمدينة، وهَمُّوا بقتل رسول الله ﷺ، فطردهم منها، وأجلاهم عنها، وذلك ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ﴾ أي: لبداية الطرد لهم، والحشر والتجميع في مكان واحد.

حيث: أجلاهم النبي ﷺ من المدينة إلىٰ خيبر.

ثم: أجلاهم عمر رضي الله عنه من خيبر إلىٰ الشام.

ثم: هم يتجمعون الآن من بلاد العالم في فلسطين.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ من المدينة؛ لشدة قوتهم، وكثرة عددهم، ومنعة حصونهم، ﴿و﴾ قد ﴿ظَنُّواْ﴾ هم أيضًا ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ من أن يخرجهم منها أحد، أو يهزمهم فيها أحد، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهزمهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ ولم يخطر ببالهم، وذلك: حين حاصرهم النبي ﷺ بعد غدرهم به، وجهز نفسه لحربهم ﴿وَقَذَفَ﴾ الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ واستسلموا، ووافق النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ خروجهم من المدينة بما يستطيعون حمله معهم، فصاروا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ حتىٰ لا يستفيد منها المسلمون بعد رحيلهم، وكذلك ﴿أَيْدِي﴾ أي: قوة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التي كانت السبب في خوفهم منهم، والدافع لهم إلىٰ هذا التخريب الذي فعلوه، وهكذا انهزم اليهود، وانتصر المسلمون، ﴿فَٱعْتَبِرُواْ﴾ بذلك ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فلا تخافوهم، ولا تأمنوهم، ولا تعاهدوهم، ولا توالوهم بحال من الأحوال.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ هذه المرة ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ بالقتل والأسر، ﴿وَلَهُمْ﴾ في أي من الحالتين ﴿فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

يعني ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي نزل بهم وحدث لهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ﴾ حاربوا الله ورسوله، وغدروا، ونقضوا العهد، وهَمُّوا بقتل رسول الله ﷺ، ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ ويحارب دينه، أو أولياءه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ له ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

هذه هي غزوة بني النضير اليهود، وأسبابها.

وللسورة دروس تربوية نعقِّب عليها:

الدرس الأول: لمَّا حاصر المسلمون حصونهم أمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم، إهانة لهم، وإرعابًا لقلوبهم، وضغطًا اقتصاديًّا حربيًّا عليهم.

فقالوا: لقد كنت تنهى عن الإفساد في الأرض، وهذا إفساد، وداخَلَ بعض المسلمين من ذلك شيء!! فأنزل الله تعالىٰ قوله الكريم:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿مَا قَطَعْتُم﴾ خلال حربكم معهم، وحصاركم لهم ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ نخلة، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ دون قطع، ذلك ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لكم، تدميرًا لاقتصاد أعدائكم، وأيضًا ﴿وَلِيُخْزِىَ﴾ ويغيظ هذا الفعل ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

الدرس الثاني: حول غنائم الحرب، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾ وما ردَّ ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أموالًا وغنائم ﴿فَـ﴾ اعلموا أنكم ﴿مَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ ما أجهدتم في الحصول ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ منكم، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ..!! وقد فعل سبحانه وتعالىٰ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لذلك: فهي للنبي ﷺ يتصرف فيها كيف يشاء، وقد فعل ﷺ وجعلها في وجوه البِرِّ والمصالح التي ذكر الله عز وجل في الآية التالية، يقول الحق سبحانه:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: جعل ورد ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي يفتحها بالحرب، والتي تفتح بعده هكذا، فحُكمها حكم أموال بني النضير، يعني ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ويلاحظ: أن اسم الله للتبرك، وسهما النبي ﷺ وقرابته كانا له في حياته ﷺ.

إذن: الفيء لليتامىٰ، والمساكين، وابن السبيل.

وذلك: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ دائراً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ خاصة، ولا يصل إلىٰ الفقراء منه شيء.

الدرس الثالث: هذه أحكام الله يجب العمل بها، إذْ يقول ربنا ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ وأمركم به ﴿فَخُذُوهُ﴾ دون تهاون، فهو خير لكم ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ ولا تقربوه، فهو خير لكم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في السر والعلن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف ورفض، أو عصاه.

وبعد أن بيَّن الله عز وجل مصارف الفيء إجمالًا، أخذ في تفصيل بيان ذلك في الآيات التالية، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

يعني: يُعطى من الفيء الذي أفاء الله علىٰ رسوله وحكام المسلمين من بعده من الفتوحات الإسلامية ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وهؤلاء: وصفهم الله عز وجل بعدة صفات، هي غاية في مدحهم وإعلاء شأنهم:

الأول: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بسبب إسلامهم.

الثاني: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ بحبهم لله وللرسول.

الثالث: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي دين الله، ويعاونون ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

الرابع: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في عقيدتهم وسلوكهم.

أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

يعني: يُعطى من الفيء أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ سكنوا ﴿ٱلدَّارَ﴾ دار الهجرة ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: اعتنقوا الإسلام من قبل كثير من المهاجرين، وهم فقراء الأنصار.

وهؤلاء: وصفهم الله عز وجل بعدة صفات هي غاية في مدحهم كذلك، وإعلاء شأنهم:

الأولىٰ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ بإسلامه، وأقام معهم.

الثانية: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ أي تأثر ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: مما أوتي وأخذ هؤلاء المهاجرون من الأموال والعطايا دونهم.

الثالثة: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ يفضلون غيرهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عند عوزهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: شدة احتياج.

الرابعة: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ أي: يَسْلَم من شُحّ ﴿نَفْسِهِۦ﴾ وبخلها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وهؤلاء الأنصار قد سَلِموا من شُحّ أنفسهم.

أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

يعني: يُعطى من ذلك الفيء ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المهاجرين والأنصار، وهم: التابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وهؤلاء: وصفهم الله عز وجل بعدة صفات هي غاية في مدحهم، وإعلاء شأنهم:

الأولىٰ: أنهم يعترفون بالتقصير في حق المولىٰ، ويطلبون المغفرة قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾.

الثانية: أنهم يدعون بالمغفرة لجميع مَن سبقهم من المؤمنين ﴿و﴾ اغفر ﴿لِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

الثالثة: أنهم يطلبون صفاء الصدور وسلامة القلوب من أمراضها في حق المؤمنين ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ يا ربنا ﴿فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حقدًا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الرابعة: أنهم يثقون في رأفة الله ورحمته بعبادة، ويرجونها لأنفسهم وللمؤمنين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فارأف بنا وارحمنا.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالىٰ أنواع المؤمنين، وحكىٰ لنا بعض أقوالهم الطيبة، لنعرفهم، ونحبهم، ونقتفي آثارهم إلىٰ يوم القيامة، يبدأ في بيان بعض أنواع الكافرين، ويحكي لنا طرفًا من أقوالهم الفاسدة الكاذبة، لنعرفهم ونحذرهم إلىٰ يوم القيامة!! فيقول المولىٰ سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

تحكي هذه الآيات ما دار بين المنافقين في المدينة ـ وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَيّ ـ وبين يهود بني النضير، الذين أرادوا قتل رسول الله ﷺ، حيث قال المنافقون لإخوانهم في الكفر: لا تلينوا لمحمد، ولا تخافوا منه، فنحن معكم عليه، و ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم وطردتم منها ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، ﴿و﴾ لئن أمرنا فيكم بشيء نفعله فيكم فلن نفعله، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ بشيء يضركم، ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ لنكونن معكم، و ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، يقول تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في كل ما قالوه، إما لعجزهم عن تنفيذ ما يقولون، أو لتبييتهم النية بغير ما يقولون!!

لذلك: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: اليهود لا يُنصرون أبداً، حيث يقاتلهم مؤمنون.

أيها المؤمنون..

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَأَنتُمْ﴾ يا مؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ وإرعابًا ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ أي: هؤلاء المنافقين، ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ لتأخر عذابه عنهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخوف والرعب منكم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يعرفون عظمة الله، ولا يخشونه حق الخشية.

لذلك فإنهم:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

نعم، ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ في أية معركة ﴿جَمِيعًا﴾ اليهود والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ وهم ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: في قلاع وحصون، ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ﴾ جمع جدار، أي: متاريس يتحصَّنون بها، ويحاربون من خلفها، كالدبابات والمدرعات والمصفحات، وغير ذلك، ويا أيها المؤمن إنك ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: متحدون، ومتآلفون، ومتحابون، مع بعضهم البعض، ﴿و﴾ الحقيقة ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾ أي: متفرقة، فهم في عداء، ولا يجتمعون إلَّا عليكم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوضع الذي هم فيه ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

وهؤلاء: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

مثلهم أي: اليهود والمنافقين في عدائهم للمسلمين ﴿كَمَثَلِ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ﴾ عادوا المسلمين، وحاربوهم ﴿مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ في يوم بدر، وقد هزموا، و ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة.

هؤلاء: سيهزمون ويذوقون وبال أمرهم في الدنيا، ولهم كذلك العذاب الأليم يوم القيامة.

ومثل المنافقين في إغراء اليهود على حرب المسلمين:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

حيث أغوىٰ الإنسان وتبرأ منه، وهؤلاء: أغووهم، ووعدوهم بالنصرة، ثم تركوهم. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالىٰ:

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

وهو كذلك جزاء كل ظالم .

وبعد بيان بعض أوصاف الكافرين من اليهود والمنافقين، وعرض صور من أحوالهم: تكون الموعظة والنصيحة الإلٰهية للمؤمنين، حيث يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نعظكم وننصحكم:

أولًا: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره فلا تخالفوها، وفي شريعته فلا تتركوها.

ثانيًا: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وهو يوم القيامة من عمل فتزيد عليه إن كان صالحًا، وتكف عنه، وتتوب منه إن كان سيئًا.

ثالثًا: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تأكيد علىٰ تقوى الله لأهميتها القصوى؛ حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم نهاهم عن الغفلة قائلًا: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في تركهم ذكر الله، وما أمركم به ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلم يذكروه، وتركوا شرع الله، فلم يطبِّقوه ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ من العمل الصالح لها، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين نسوا الله ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فلا تكونوا مثلهم. حيث:

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

نعم، ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله، فلم يتقوه ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين خافوه، فلم يعصوه، حقًّا ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بنعيم الله، الناجون من عذابه يوم القيامة، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين، آمين اللهم آمين.

ولمَّا أمر ربنا بالتقوىٰ بيَّن ما يُرشد إليها، ويُعين عليها، وهو القرآن الكريم الذي عظمه المولىٰ عز وجل قائلًا:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: اخشعوا واخضعوا وتأثروا واعملوا بكتاب الله، حيث إنا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ !! ﴿و﴾ على كلٍّ: ﴿تِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ والمواعظ ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نذكرها ونوضحها ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، فيزداد المؤمن بها إيمانًا، ويقلع الكافر بها عن كفره، ويكف الظالم بها عن ظلمه.

ولمَّا وصف ربنا القرآن بهذا الوصف العظيم، أتبع ذلك بذكر وصف عظمة مَن أنزله، وهو الله تعالىٰ، فقال عز وجل عن نفسه:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

أيضًا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أيضًا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

نعم، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الذي أعطى كل شيء خلقه وصورته ثم هدىٰ، حقًّا له الأسماء التسعة والتسعون، الواردة في الحديث الشريف، وهي الأسماء الحسنى الدالة علىٰ صفاته العلىٰ سبحانه.

ثم تختم السورة بما بدأت به، حيث يقول ربنا جل وعلا: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صدق الله العظيم، وبهذا انتهت سورة الحشر، أو سورة بني النضير، ولله الحمد والمنة.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الممتحنة

سورة الممتحنة: مدنية، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله تعالى رباً وبمحمد ﷺ نبيًّا ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ في الدين ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وأصدقاء ومستشارين، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ والمحبة، وتثقون فيهم، وتفضون إليهم بأسراركم!! ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو دين الإسلام، هؤلاء وآباؤهم كانوا ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: يخرجون محمداً وأصحابه من مكة ظلماً وعدواناً؛ لمَا هم عليه من التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لإيمانكم أو كراهه إيمانكم بالله عز وجل. نعم لا تتخذوهم أولياء ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا﴾ مجاهدين ﴿فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾، يا أيها الذين آمنوا أنتم ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي بعضكم يتودد إليهم في الخفاء ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ فأحاسبكم عليه، ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي يتخذهم أولياء، ويتودد إليهم، ولو سرًّا ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وأهلك نفسه في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة.

وصدق الله، فإننا نشاهد هذا الضلال عن سواء السبيل الذي تضيع بسببه الأوطان، ويهلك بسببه العباد في أيامنا هذه التي نحياها، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

ثم يبيِّن الله عداوة الكفار للمؤمنين، فيقول جل وعلا:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾

نعم، إنهم ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يتمكنوا منكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ خالصي العداوة، ولا يوالونكم كما توالونهم ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: لآذوكم بكل وسيلة ممكنة بالقول أو بالفعل، ﴿وَوَدُّوا۟﴾ مع ذلك ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كما كفروا هم، فتكونون سواء، ولذلك: مودة أمثالهم، وموالاتهم أمر خطير، وضرر كبير.

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا، ولا تتخذوا الكفار أولياء، ولو من أجل أقاربكم وأولادكم، ومراعاة مصالحهم، حيث إنه:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ﴾ يعني لن ينفعكم هؤلاء يوم القيامة إن اتخذتم الكفار في الدنيا أولياء من أجلهم.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ وبين هؤلاء الأقارب الذين تتخذون الكفار أولياء بسببهم، فلا تتخذوا الكفار أولياء إذًا بأي حال من الأحوال، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

يا أيها الذين آمنوا اقتدوا بالصالحين في عدم موالاة الأعداء، إذ يقول الحق سبحانه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۖ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

يعني: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قدوة ﴿حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين، وذلك حينما ﴿قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ الكافرين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ إنا بريؤون من كفركم، ومن عبادتكم للأصنام، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ وبيننا وبينكم عداوة وبغضاء لا تنتهي ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من كفر وطغيان، ولكن ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فلا تتأسوا به فيه؛ حيث كان هذا الاستغفار عن وعد وعده لأبيه سابقًا بقوله:

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، حيث ظن إسلامه، ولكن تبيَّن خلافه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم قولوا مع إبراهيم وقومه، حين فارقوا قومهم، وتبرءوا منهم، وتضرعوا إلي بقولهم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: عليك اعتمدنا في جميع أمورنا، وإليك رجعنا وتبنا، وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذا انتصروا علينا، فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل؛ فيفتنوا بذلك ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: اغفر لنا ما فرط من الذنوب. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: أنت يا الله الغالب الذي لا يُذل مَن التجأ إليه، الحكيم الذي لا يفعل إلَّا ما فيه الخير والمصلحة.

يا أيها الذين آمنوا:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

نعم، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أي: إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ في التبريء من الكفار، وعدم اتخاذهم أولياء، وذلك أي: هذا الاقتداء والتأسي بهم ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ﴾ هو الواجب اتباعه؛ إذْ فيه خير كثير ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويبتعد عن هذا الاقتداء، ويوالي أعداء الله أعداء المسلمين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لأهل طاعته.

ولمَّا أمر الله تعالىٰ بعداوة الكفار في صدر الإسلام: شددوا في عداوة آبائهم وأولادهم وجميع أقاربهم، والبراءة منهم، فأنزل الله عز وجل:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

أي: لا تشددوا وتسرفوا في عداوتكم لهم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم﴾ في الدين ﴿مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ﴾ محبة بعد عداوة، وإلف بعد فرقة، بأن يوفقهم الله للإيمان؛ فيصيروا لكم أولياء، وسبحان الله!!

لقد حدث ذلك حيث أسلم أقارب كثير من المهاجرين بعد فتح مكة.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ﴾ علىٰ تبديل الأحوال، وتقليب القلوب، وهدايتهم للإيمان، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أسلم من المشركين.

بعد أن أمرنا الله عز وجل بعدم الولاء مع الكافرين: بيّن حدود التعامل معهم.. بقوله سبحانه:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

يعني: يا أيها الذين آمنوا ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ﴾ ويمنعكم ﴿ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي بسبب الإسلام ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ لإيمانكم ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: تكرموهم، وتحسنوا إليهم قولًا وفعلًا ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: ولا تظلموهم، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

وإذا كان هذا مع المخالفين في الدين، فما بالنا بأهمية العدل، وعدم الظلم بين المسلمين!!

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَن﴾ موالاة، وإكرام، والإحسان إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

﴿وَأَخْرَجُوكُم﴾ بأنفسهم ﴿مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ أو أخرجكم غيرهم ﴿وَظَـٰهَرُوا۟﴾ وساعدوهم ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾، ويمنعكم سبحانه ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بأي لون من ألوان الموالاة والمودة، ﴿و﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ ويتودد إليهم ويصادقهم منكم ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بتعريضها للعذاب.

وأيضًا لمَّا أمر الله المسلمين بعداوة الكفّار، وعدم موالاتهم، وكان الزواج من أقوىٰ أسباب الموالاة، فأسلمت بعض النسوة، وهاجرن من مكة تاركات أزواجهن، شرَّع الله امتحان هؤلاء النسوة؛ لمعرفة صدق إيمانهن، فقال جل شأنه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ من مكة ﴿مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ فارّات بدينهن ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ لتعرفوا مدىٰ الصدق في إيمانهن، وذلك بأن يحلفن أنهن ما هاجرن إلَّا رغبة في الإسلام، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ﴾ أي: الله اعلم بصدقهن في دعوى الإيمان، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ وغلب علىٰ ظنكم أنهن ﴿مُؤْمِنَـٰتٍ﴾ صادقات ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ مرة ثانية،حيث إنه ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقد انقطعت بالإيمان والهجرة العلاقة بينهم وبين هؤلاء الكفار ﴿و﴾ علىٰ ذلك ﴿ءَاتُوهُم﴾ أي: اعطوا الكفار الذين كانوا أزواجهم ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ عليهن من المهور ﴿و﴾ أيضًا ﴿لَا جُنَاحَ﴾ لا إثم ولا حرج ﴿عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في هذه الحالة، وذلك ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن.

وهذا في الزوجات اللاتي أسلمن وتركن أزواجهن، أما إذا أسلم الزوج وهاجر، وبقيت زوجته علىٰ الكفر، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ﴾ زوجاتكم ﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾ لقطع هذه العلاقة بسبب إسلامكم، ﴿و﴾ في هذه الحالة ﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾

أي: اطلبوا ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور عليهن ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾ هم بدورهم أي الرجال الكفار ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾ على زوجاتهن اللاتي أسلمن، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكر هو ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ وشرعه ﴿يَحْكُمُ﴾ به ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فاتبعوه، واعملوا به، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه لهم.

هـذا: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ وضاع عليكم ﴿شَىْءٌ مِّن﴾ مهور ﴿أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ اللائي رجعن عن الإسلام، وعَدْنَ إلى الكفار ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: وقعت بينكم وبين الكفار معركة، فانتصرتم وغنمتم أموالهم ﴿فَـَٔاتُوا۟﴾ من هذه الغنائم ﴿ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ﴾ هربت ﴿أَزْوَٰجُهُم﴾ إلى الكفار ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مهورهن؛ تعويضًا لهم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: راقبوا الله الذي آمنتم وصدقتم بوجوده، راقبوه في أقوالكم وأفعالكم.

كانت هذه الأحكام التي ذكرت قبل فتح مكة شرفها الله.

وعندما أتم الله النعمة على المسلمين، وأعز الله الإسلام بفتح مكة، وأسلم أهلها بايعهم رسول الله ﷺ يومئذ على الجهاد والإسلام، وهنا جاءت النساء اللاتي أسلمن، وطلبن من النبي ﷺ أن يبايعهن، فنزل قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

والمعنى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ﴾ النساء ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي: الإسلام، وهذه

الأشياء الستة المذكورة، ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عما سلف منهن، وما يكون مستقبلًا ويتُبن عنه، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن.

وهذه الأشياء الستة، التي بايع النبي ﷺ النساء عليها هي:

أولًا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لأن الشرك ظلم عظيم.

ثانيًا: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ أي: لا يَرتكبنَ جريمة السرقة.

ثالثًا: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي: لا يرتكبن جريمة الزنى، وهي من أفحش الفواحش.

رابعًا: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ كما كان يُفعل في الجاهلية من وأد البنات.

خامسًا: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ أي: كذب ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ فتلحق الولد بغير أبيه.

سادسًا: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ وهو كل ما أمر به الشرع وحسَّنه، أو نهىٰ عنه وقبَّحه.

وقد بايعهن ﷺ، دون مصافحة، بل بالقول فقط.

وفي نهاية السورة: يؤكد ربنا علىٰ ما بدأت به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ [الممتحنة: ١] وذلك: من النهي عن موالاة الكافرين، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

يعني: يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا ولا تتوددوا، ولا تصادقوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من اليهود، أو النصارىٰ، أو سائر الكفار من أصحاب النِّحَل الفاسدة، والمِلَل الباطلة، فإن هؤلاء لا أمان لهم، ولا تودد معهم، ولا موالاة بينكم وبينهم؛ حيث ﴿قَدْ﴾ كفروا بالله، وكذبوا رسوله، وأنكروا البعث، و ﴿يَئِسُوا۟ مِنَ﴾ ثواب ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تمامًا ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ جميعًا ﴿مِنْ﴾ بعث ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ وحسابهم.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الصف

سورة الصف، وهي سورة مدنية، تبدأ بقوله سبحانه وتعالىٰ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

بدؤٌ يُشعر: بعزة الله، وعظمته، وحكمته.

ثم تحمل السورة في مطلعها بالإنكار علىٰ مَن يعد وعداً، أو يقول قولاً، ثم لا يفي به فقال الحق جل جلاله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾

يعني: لابد أن يتطابق القول ـ عند المؤمن ـ مع العمل، كما لا بد أن يكون العمل وفق ما يُرضي الله ورسوله.

ثم تحثُّ السورة في مطلعها كذلك المسلمين علىٰ: وحدة الصف، واجتماع الشمل، والترابط بينهم، حيث يقول المولىٰ تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾

والمراد: التماسك، والتعاون فيما بينهم، وتكامل المواقف، وعدم التخاذل، وعدم وجود الثغرات في الصف الإسلامي، حال القتال وغيره، وذلك شيء يحبه الله عز وجل من المسلمين.

وبعد أن بيّن الله حبه للقتال المُنظَّم في سبيله ضد أعداء الدعوة: أخذ في بيان مبررات هذا القتال، إذْ يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

أي: واذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ بني إسرائيل ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالتكذيب، والعناد، وغيره ﴿وَقَد﴾ وأنتم ﴿تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ حقًّا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بالهداية والنور؟ وبهذا العناد والتكذيب، فقد زاغوا وبعدوا عن الحق، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ عن الحق باختيارهم ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهداية، وخرجوا عن الطاعة، وصاروا فاسقين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وبهذا: الإيذاء لنبيهم، والزيغ عن الهداية، والفسق: صاروا حربًا على الإسلام وأهله.

وهذا من مبررات قتالهم، الذي حثَّ عليه الإسلام، ونُظِّم له الصف الإسلامي.

أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

أي: واذكروا ﴿إِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حيث بعث فيهم ولهم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ خاصة ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ أي: قبلي ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ التي نزلت على موسى ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يأتي للناس كلهم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الدالة على صدقه في هذه الأشياء الثلاثة، التي ذكرها لهم ﴿قَالُوا۟﴾ منكرين، ومعاندين ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح.

وهم بهذا التكذيب لنبيهم والتحريف لما جاء به: صاروا حربًا على الإسلام وأهله.

هكذا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

أي: أنه لا أحد أشد ظلمًا من الذي يفتري على الله الكذب، كأن يقول على القرآن إنه سحر، أو أن الله ليس بواحد، أو أن محمدًا ليس برسول، وذلك: في الوقت الذي يدعوه ربه فيه إلى الإسلام، الذي فيه سعادة الدارين.

أليس هذا بظالم؟ بلىٰ إنه بهذا الفعل أظلم الظالمين، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق.

ودفع هذا الظلم: من أقوى مبررات الجهاد الذي حَثَّ عليه الإسلام.

وكل هؤلاء، وغيرهم:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

نعم إنهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الإسلام ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأقوالهم الباطلة، وشبهاتهم الفاسدة، لكن هذا مستحيل، حيث إن الله عز وجل ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كلهم مجتمعين ومنفردين.

علىٰ كل حال فالمستقبل للإسلام، حيث إن الله تعالىٰ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

نعم: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بعث محمدًا ﷺ بالهدىٰ وهو القرآن ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو الإسلام، وذلك ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ويعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ من جميع الأديان المخالفة له، وسوف يتم ذلك بإذن الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ولو كره أعداء الله، المشركون بالله غيره.

وإذا كان في هذه الآية: بشارة بنصر الإسلام، وإعزاز أهله، فإن ذلك الهدف من أقوىٰ مبررات الجهاد..

وإذا كان تعالىٰ قد أشار إلىٰ بعض مبررات الجهاد: فإنه عز وجل يبيِّن أنه أحب الأعمال إلىٰ الله، فيقول جل في علاه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

مَن منا لا يحب أن يعرف هذه التجارة، التي تنجيه من عذاب أليم؟

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

هذه التجارة التي لا تبور، والتي تنجي من عذاب أليم هي: الإيمان الحق بالله ورسوله، ثم الجهاد الصادق في سبيل الله بالمال والنفس، حيث يقول تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من الإيمان، والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تجارة الدنيا، والكد لها. وذلك ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ النافع المفيد من الكد الذي قد يضيع.

ثم يبيِّن ربنا لِمَ كان الإيمان بالله والرسول والجهاد في سبيل الله خيرًا لهم بقوله:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

هذه الأشياء: هي من ثواب الله علىٰ الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله.

وهي: غفران الذنوب، ودخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والتي فيها المساكن الطيبة، للإقامة الدائمة، حقًّا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ للمؤمنين المجاهدين، بالإضافة إلى نعمة أخرى ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ﴾وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم في معاركم مع أعدائكم، وكذلك ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ لهم في البلاد، وفي مجالات نشر دين الله، ﴿و﴾ بذلك ﴿بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يا رسول الله.

وفي نهاية السورة: يخاطب ربنا عز وجل المؤمنين، آمرًا لهم أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، وأن يستجيبوا لله وللرسول، كما استجاب الحواريون لعيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وذلك في قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾، وذلك ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ منكم في الدعوة ﴿إِلَى﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ ؟ ﴿قَالَ﴾ له

﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أول مَن آمن به، وصاروا أصفياءَه ﴿نَحْنُ أَنصَارُ﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ معك.

ولمَّا بلَّغ عيسىٰ دعوته لقومه، وناصره في ذلك الحواريون: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ اهتدت طائفة من بني إسرائيل، وآمنت بالله، واتبعته، وكفرت طائفة منهم، وعاندته، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالكرامات الكثيرة ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ فيقول عنهم المولىٰ تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ لذلك ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ علىٰ غيرهم من بني إسرائيل، في أنهم علىٰ الحق، واستجاب لهم خلق كثير في كل مكان.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجمعة

وهي سورة مدنية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

أي: يسبح لله الملك القدوس، المنزه عن النقائص، المتصف بصفات الكمال كل ما في السماوات وما في الأرض من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها.

هـذا الإلـه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ وهم العرب الذين لم ينزل إليهم كتاب سماوي سابق ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعرفونه، ويعرفون نسبه وأمانته، وذلك: لـ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ سبحانه، وهي القرآن، وليعرفوا ربهم فيؤمنوا به، ويخضعوا له ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من الشرك، وسيء الأخلاق؛ ليحملوا أشرف رسالة إلىٰ الدنيا كلها، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: ما في الكتاب مما يُصلح شأنهم، ويُعلي قدرهم، والحكمة في تعاملاتهم؛ ليقودوا الدنيا وأهلها إلىٰ كل خير وفضيلة، ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ هذه الرسالة، ومجيء محمد ﷺ إليهم ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ كفر وجهل ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: واضح.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿و﴾ قد بعثه الله أيضًا إلىٰ ﴿ءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ أي: لم يأتوا بعد، وهم كل مَن جاء بعد جيل الصحابة إلىٰ يوم القيامة، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما يقضي به ويقدره.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

يعني ﴿ذَٰلِكَ﴾ العطاء لمحمد ﷺ، والإنعام بنبوته لعموم الدنيا كلها إلىٰ يوم القيامة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ﴾ ربنا ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وقد أعطاه عز وجل لمحمد ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.

ثم يحثُّ ربنا عباده علىٰ وجوب حسن اتباع هذا القرآن، وضرورة الامتثال لهذا النبي الكريم، وذلك بذكر تقصير مَن قبلهم، في حق كتابهم ونبيهم، والحط بسبب هذا التقصير من شأنهم، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالىٰ وهو يذم اليهود الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ولكنهم لم يعملوا بها، بل فرطوا فيها، وحرفوها وبدلوها، مثلهم في ذلك، كمثل ﴿ٱلْحِمَارِ﴾ الذي يحمل أسفارًا، أي: كُتُباً وهو لا يدري ما فيها.

حقًّا، ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ فحملوها ولم يعملوا بها، مثلًا، وقد ظلموا بذلك ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي هذا لفت نظر لهذه الأمة ألَّا تكون مثل اليهود: تحمل القرآن، ولا تعمل به.

ثم يأمر الله محمدًا ﷺ أن يخاطب هؤلاء اليهود قائلًا:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾

لمَّا قال اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] وادَّعوا أن الدار الآخرة لهم خاصة، إلىٰ غير ذلك، قال تعالىٰ لحبيبه: ﴿قُلْ﴾ لهم؛ كشفًا لكذبهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ وأحباؤه ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ جميعًا، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: تمنوا علىٰ الله أن يُميتكم سريعًا، وينقلكم إلىٰ دار كرامته ونعيمه، وذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنكم أولياء الله وأحباؤه!

ولو قلت لهم ذلك، فلن يفعلوا:

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

حقًّا: إنه لم يحدث، ولن يحدث أبدًا، إذن فهم ظالمون، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعاقبهم علىٰ ظلمهم.

ثمَّ أنَّبهم يا محمد علىٰ فرارهم من الموت، وعدم استعداهم بالإيمان له، وخوفهم منه:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: لا مهرب لكم من الموت، الذي تُرَدُّون بعده وتعودون إلىٰ الله، فيجازيكم علىٰ ما كنتم تعملون.

وبعد ضرب هذا المثل ـ الذي يُخرج الأمة الإسلامية من غفلتها، ويوقظها من سباتها ـ يعود الخطاب إلىٰ المؤمنين، فيقول المولىٰ سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾

يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ﴾ بالآذان ﴿لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ لعبادته سبحانه ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ أي: فامضوا واذهبوا ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من خطبة وصلاة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ وكل شواغل الدنيا في هذه الساعة، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ السعي إلىٰ ذكر

الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البيع والشراء، والانشغال بأمور الدنيا كلها، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فاستجيبوا.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ وتم بحمد الله أداؤها ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا أردتم، وتفرقوا في الأرض دون حرج ﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾ اطلبوا ما تحبون ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ رزقًا، أو علمًا، أو راحة، أو أي شيء آخر، ﴿و﴾ لا تغفلوا عن طاعة الله في أي من هذه الأغراض، بل ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ذكرًا ﴿كَثِيرًا﴾ في كل أحوالكم، واشكروه على إنعامه الدائم المتواصل عليكم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في دنياكم وأخراكم.

ذات مرة والنبي ﷺ يخطب على المنبر: وصلت قافلة التجارة، وفرح الناس بوصولها، ولم يتمالك بعض المسلمين نفسه من شدة لهفه على تجارته فيها، فقام وخرج من المسجد، وذهب لأمواله فيها، فعاتب الله المسلمين على ذلك بقوله عز وجل:

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ﴾ ومن أرباح الدنيا، ﴿وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ﴾ خاصة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لمن توكل عليه، وطلب الرزق دون إخلال بضوابطه الشرعية.

فلم يَعُد المسلمون بعدها إلى هذا التصرف، والآية كما هو واضح، فيها التحذير لكل مَن يُفضل لهوًا أو تجارة، أو عملًا، على الاستماع للخطبة وصلاة الجمعة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المنافقون

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۘ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ۗ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾

هذه هي الآية الأولى من سورة المنافقون المدنية.

وهي تكشف للنبي ﷺ ما في قلوب فريق من الناس كانوا يُظهِرون له الود، وما في قلوبهم غير ذلك، يقول سبحانه:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ يا محمد ﴿قَالُوا﴾ لك بألسنتهم فقط: نحن ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ دون أن تُقرَّ قلوبهم بذلك ﴿وَاللَّهُ﴾ حقيقة ﴿يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ كما تدل عليه قلوبهم ﴿و﴾ لكن في الوقت ذاته ﴿اللَّهُ﴾ عز وجل ﴿يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون بألسنتهم. وهؤلاء:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: جعلوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ التي أقسموا بها كذبًا أنهم مسلمون ﴿جُنَّةً﴾ وقاية لهم من القتل، أو الأسر، أو المقاطعة معهم، ﴿فَصَدُّوا﴾ بتظاهرهم بالإسلام ـ وهم يكيدون له ـ الكثيرين ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لاغترارهم بهم، وانخداعهم بأفكارهم، ﴿إِنَّهُمْ﴾ بهذا الخداع ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ السوء لعملهم؛ بسبب ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ ظاهراً عن طريق النطق

بالشهادتين بألسنتهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بقلوبهم، ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وختم عليها جزاء نفاقهم، ﴿فَهُمْ﴾ حقًّا ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ يتدبرون، فيعرفون سوء فعلهم فيتوبون.

والعجيب أنه:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يا رسول الله، ويا كل مؤمن ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ منظرًا، وصحة، ﴿و﴾ أيضًا ﴿إِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ من شدة فصاحتهم، وقوة بيانهم، ومع ذلك: فهم في غاية الضعف والخوف منكم، ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ إلىٰ الحوائط، لا سند لهم من عقيدة قوية، أو فهم سليم، كما أنهم من الخوف الداخلي عندهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ بصوت عال ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم الهدف المقصود، والعدو المرصود، علىٰ أية حال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ الحقيقي لك ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تغتر بخداعهم، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أهلكهم ولعنهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الهدى إلىٰ الضلال بعد قيام البرهان.

والأعجب من ذلك أنه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾

لمَّا نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وافتضح أمرهم: أتاهم بعض أقاربهم من المؤمنين، وقالوا لهم: تعالوا إلىٰ رسول الله ﷺ، وتوبوا إليه من النفاق، واسألوه أن يستغفر لكم ربه: أعرضوا ورفضوا، فنزلت هذه الآية.

يعني ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ إعراضًا، وامتناعًا وغرورًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يرفضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ وهم متكبرون عن استغفار النبي ﷺ لهم.

ولمَّا طلب من النبي ﷺ بعض أقارب هؤلاء المنافقين أن يطلب من الله المغفرة لهم، ومال إلىٰ ذلك ﷺ قال له ربه:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾

أي: هم ليسوا بأهل للاستغفار؛ لأنهم لا يؤمنون، ولذلك ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ ماداموا على النفاق.

حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته، وهؤلاء هم الفاسقون الحقيقيون .**وهؤلاء أليسوا!!**

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾

نعم، ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لأصحابهم من الأنصار ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾ من أموالكم ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ من المهاجرين ﴿حَتَّىٰ﴾ يجوعوا، و ﴿يَنفَضُّوا۟﴾ عنه ويتفرقوا، وهي خطتهم مع الدعاة إلى الله تعالى إلى يوم القيامة، ﴿و﴾ قد فاتهم أنه ﴿لِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا، يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك؛ لعدم إيمانهم.

أليسوا هم الذين:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

نعم، هم الذين ﴿يَقُولُونَ﴾ عند عودتهم من إحدى الغزوات ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ أي: عدنا ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ من هذا السفر ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا﴾ قائل هذا الكلام هو عبد الله بن أُبي، وهو يقصد بالأعز: نفسه، و ﴿ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾ يقصد ـ لعنه الله بذلك ـ رسول الله ﷺ، وقد قال ذلك: من شدة الحقد على رسول الله والبغض له، حقًّا ليس هو الأعز، وليست العزة له؛ بل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لله جل وعلا القوة والغلبة، ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيقولون ما يحلو لهم.

وبعد فضح المولىٰ للمنافقين، وتعرية صورتهم علىٰ هذا النحو: يدعو الله عز وجل المؤمنين إلىٰ البعد عن أخلاقهم، والتحلي بأخلاق الإسلام، إذ يقول المولىٰ عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾

يأمر الله تعالىٰ المؤمنين بعدم الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله، من قراءة للقرآن، وصلاة، واستغفار، ويخبرهم أن مَن شغل بذلك عن ذكر الله: فقد صار من الخاسرين.

ثم يأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله: وذلك: من قبل أن يأتي الموت، فيندم البخيل، ويقول: ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ ولو زمنًا قليلًا، فأعود ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ بمالي في سبيل الله ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعد هذا التفريط الذي كان مني في الطاعات.

يقول تعالىٰ مخبرًا عباده الذين قد ينشغلون عن ذكر الله:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

يعني سارعوا إلىٰ مرضاة الله، واستعدوا للقائه قبل أن تحين آجالكم، وتطلبون الإمهال والتأخير؛ لإصلاح ما فات، فإنه ﴿لَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا﴾ عن موعدها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ المكتوب في اللوح المحفوظ، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه بمثله.

* * *